

## الباب السابع

### ”الحتمية“ في التحليل السيكولوجي

قام التحليل النفسي كما قلنا على مبدأ التحليل لكل علة . ومعنى هذا أن كل الحوادث النفسية للإنسان مرتبطة ارتباط العلة بالمعلول ، وأن كل حادث من مبدأ حياة الطفل ذو أثر في سائر حياته . ويرجع التحليل النفسي بهذا المبدأ إلى الساعات الأولى من حياة الطفل ، بل إن حادث الولادة نفسه يعتبر من هذه الحوادث ، ويرجع التحليل إلى أبعد من ذلك فيعتبر أن حياة الجنين داخل الرحم جزء من حياته النفسية ، ولكل من هذه الأدوار في حياة الفرد أثره المحتم في شخصيته . ولو تدجنا نظرية التحليل النفسي لوجدنا أن أهمية هذه ”الحوادث“ النفسية تزداد كلما اقتربنا من بدء الحياة ، فحوادث الطفولة والميلاد والحياة داخل الرحم ، أهم في تشكيل الشخصية من حوادث المراهقة أو الشباب أو الكهولة .

ومبدأ الحتمية في التحليل النفسي يشبه المبدأ الذي أخذت به العلوم الطبيعية حيث يتحتم أن يكون لكل ظاهرة تعليلها ، ولا يقل أن تبقى ظاهرة ما بغير تعليل . ولم يكن هذا المبدأ جديدا على علم النفس في الواقع ، فإن محاولات الترابطين<sup>(١)</sup> في تفسير الحياة العقلية كانت محاولات من نفس النوع ، فقد جعلوا ”الترباط“ أساس التفسير النفسي ، ولكن مادة الدليل عندهم كانت غالبا هي الأفكار ولذلك قل ما ذكره عن النواحي الوجدانية النزوعية ، ثم إن سيكولوجية الترابطين كانت سيكولوجية شعورية صرفة ليس للأشعور مكان فيها . وقد زادت سيكولوجية الترابطين أن جعلت للترباط تفسيراً فسيولوجياً . فقد سارعت إلى الاستفادة مما عرف في ذلك الوقت عن تركيب الجهاز العصبي وتكوينه من خلايا وخيوط عصبية مرسلة وقابلة وملتقيات<sup>(٢)</sup> فكانت الخلايا هي مقار الأفكار واكسوناتها المرسلة والقابلة وسائل الترباط ، والملتقيات هي التي تحدد سهولة الارتباط أو صعوبته .

ولكن التحليل النفسى لم يفرض أى أساس فسيولوجى للترابط أو لغيره بل بالعكس قد استبعد فرويد جميع التفسيرات المبنية على أساس تشرىحى أو فسيولوجى أو كيميائى (١) .

وقد أدى الأخذ بمبدأ الحتمية إلى نتيجتين :

(الأولى) أن كل ما يمر بالإنسان من حوادث لابد أن تترك أثرها فى نفسه فتترك أثرا فى إحدى طبقات العقل الثلاث الشعور وتحت الشعور واللا شعور أو فى أكثر من طبقة. ويمكننا أن ننظر إلى كل حادث نفسى باعتبار أن مركزه فى إحدى الطبقات الثلاث ولكنه يمتد إلى سائر الطبقات فيحدث أثره فيها .

والتحليل النفسى هنا يقوم على الترابط أيضا بحيث ترتبط حادثة نفسية معينة بأخرى فإن إحداهما إذا تكرر حدوثها أدى ذلك إلى إثارة زميلتها .

غير أن التحليل النفسى يختلف عن ترابط الترابطيين فى أنه لا يجعل الترابط بالضرورة بين عناصر فى نفس المستوى ، بل هو فى الغالب بين عناصر لا شعورية وأخرى شعورية ومن هنا كانت قوة اللا شعور وقدرته على التعبير الفعلى عن طريق ارتباط مكوناته بالشعور، ثم إن التحليل النفسى لم يقتصر كالترابطية على أن يكون مذهبها تحليليا (٢) بل زاد على ذلك أن كان مذهبها تركيبيا (٣) فوصل بنا إلى صورة متكاملة للسلوك الانسانى بدل أن يقتصر على التحليل .

وحتمية التحليل تختلف عن حتمية الترابط فى أنها هينة فهى تسمح بأكثر من احتمال واحد من احتمالات السلوك طبقا لنوع التحول الذى حدث فى الطاقة النفسية كنتيجة لشبهة (٤) اللا شعورية السائدة . وأقرب المذاهب الحديثة إلى الترابطية هو مذهب السلوكيين (٥) بل إنه عند البعض مجرد امتداد لفكرة الترابطية فى صورة أخرى . وقد قيل عن التحليل النفسى مثل ذلك القول . غير أن نوع التحليل فى التحليل النفسى مبنى على قدر من الشمول والمرونة لا نجدده فى النظريات السيكولوجية الأخرى

Analytical (٢)

Freud : Introd. Lect. on Psycho-Analysis, p. 16 (١)

Behaviourism (٥)

Mechanism (٤)

Synthetic (٣)

وتبرز هذه النتيجة أهمية "التاريخ الفردي" في التعليل النفسي . وبما أن الحوادث التي تمر بالفرد لا عداد لها فقد عمد علماء التحليل النفسي إلى بيان الأسس التي تشتق منها "الأهمية" النسبية لهذه الحوادث . فحوادث الطفولة أهم مما عداها، وحوادث الأسرة أهم مما عداها، وهكذا . ولو أنه في الواقع ليس هناك تفضيل قاطع بل إن الحكم هو ملائسات كل حادثة بالذات .

وكما أن "تاريخ" الفرد أصبحت له هذه الأهمية الفائقة وخصوصاً تاريخه المنسي ، فقد امتدت الأهمية إلى تاريخ الجنس كله . ذلك أن بعض المعترضين على التحليل النفسي ذكروا أن "عقدة أوديب"<sup>(١)</sup> لا يعقل أن تنشأ عند ولد نشأ يتيم الأب أو لقيط رُبي في ملجأ . وكان رد فرويد على ذلك أن عقدة أوديب وأمثالها من الأسس العميقة للحياة النفسية إنما تشتق من تاريخ الجنس كله لا من تاريخ الفرد فقط . ولو أن فرويد لم يتوسع في هذه النظرة توسع تلميذه "يونج" الذي فرض وجود ما سماه "اللاشعور الجمعي" وجعله أساساً دائماً من أسس التفسير النفسي بجانب اللاشعور الفردي .

وهكذا برزت أهمية فترة الطفولة عند الإنسان كأساس للتعليل النفسي بعد ذلك ، وأصبح علينا أن نبحث عن جذور الاضطراب العصبي "العصاب" والجنون "الذهان"<sup>(٢)</sup> في فترة الطفولة ، وكذلك أصبح علينا أن نبحث في هذه الفترة عن الأصول التي تشتق منها كل من الشخصية الشاذة والعادية .

والواقع أن فترة الطفولة لم تكتسب قط تلك الأهمية الفائقة التي اكتسبتها كنتيجة لكشوف التحليل النفسي . فقد أصبح من المسلم به أن السنوات الخمس أو الست الأولى في حياة الطفل هي الفترة التي ترجع إليها الصورة النهائية للشخصية أكثر من أي فترة أخرى .

وأما النتيجة (الثانية) : التي تترتب على الأخذ بمبدأ الحتمية فهي أن كل ما يأتيه الإنسان من تصرف إنما هو مقرر من قبل ومشروط بما سبق أن مر به من تجارب

(١) انظر صفحة ٨٧ . Edipus Complex

(٢) Neurosis & Psychosis والترجمة للدكتور يوسف مراد

في طفولته وفي سائر مراحل حياته ، وبمعنى آخر فإن في التحليل النفسي نوعا من "القدريّة" فالفرد ليس حرا بل الحريّة في تصرفاته ، والفرد في ذلك مثل الجنس فكل منهما مقيد بقيود ماضيه ، ومعنى هذا أن الفرد ليس مقيدا بقيود ماضيه الخاص فقط بل ماضى الجنس البشرى كله ، وبالضرورة فإن الجنس مقيد بقيود ماضى أفرادهِ وامل هذا الرأى يتفق مع ما نراه كل يوم من فشل المصلحين في مختلف عصور التاريخ في خلق صورة انسانية "منطقية" أو "مفيدة" وما نراه من فشل الأفراد في تكيف أنفسهم في صورة جديدة .

ولعل هذه النظرة إذا تابعتها قادتنا إلى النشأوم المطلق والواقع أن هناك مبررا لكثير من التشاؤم ، ولكن هناك من الناحية الأخرى مكانا تقدر من التفاؤل . فقدرية التحليل النفسي قدرية علمية ، وليست قدرية مثالية ، وهي كقدرية العلم الطبيعي إذ يصف لنا الحالة التي تكون عليها قطعة الحديد إذا رفعت درجة حرارتها إلى درجة معينة ، فهي قدرية تستجمع مصيرها من الظروف التي مرت بها ومن المواقف التي تجدد عليها . وكما أن في مقدورنا إذا توصلنا إلى علة التمدد أو الانصهار لقطعة الحديد وإلى التحكم في هذه العلة إلى أن نغير من الحالة التي تصبح فيها ، كما نغير من ضغط الغاز بتغيير حجمه وبالعكس ، فكذلك في مقدورنا وقد عرفنا القوى الأساسية التي تعمل في نفس الإنسان ، في مقدورنا أن نرى الطريق إلى تخليصه من "مساوئه" وإلى الاتجاه به في الطريق القويم . غير أن هذا "الطريق القويم" هو لسوء الحظ عقدة العقد لأن التحليل النفسي لا يستطيع أن يختاره لنا وإنما قد يستطيع أن يدلنا على السبب في اختيار شخص بذاته "لطريق قويم" بذاته .

والتحليل النفسي يعالج الأفراد ، والعلاج معناه في الواقع إعادة النسيج النفسي إلى صورة سوية بعد أن كان مملوءا بالعقد . أو بعبارة أخرى هو نوع من التدخل في تاريخ الشخص فنحن إذ نخضعه لموقف التحليل إنما نعيده إلى حالة الطفولة الأولى ونبدأ في أن نحل العقد التي تكوّنت في ذلك العهد الصحيح . وبهذا المعنى فنحن نغير "تاريخه" وبذلك نؤثر في مصيره .

وكما أن التحليل النفسي يعالج الأفراد فهو أيضا قادر على علاج الجماعات لو أتيح له ذلك ، ولعل اليوم يأتي حين يدلنا على العليل الأساسية في المجتمعات ، تلك العليل التي تؤدي إلى انقسام المجتمع الواحد على نفسه وعلى نظيره ، وتضع

القوى الاجتماعية المختلفة بالنسبة لبعضها في موضع التطاحن والتناحر الذي هو أساس الشقاء الذي يعانيه الجنس البشرى .

والشبه عجيب بين المجتمع المنقسم والشخص "المنقسم" الذي تتناحر قواه الداخية فيضيع ما عنده من طاقة أو جهد في هذا العراك الداخلي الذي لا يحقق غاية للكائن الحي بدل أن يتجه نحو العالم الخارجي ليحقق له غاية واقعية .

ويمكن أن نلمس في المجتمعات صورا تشبه تلك الصور العصابية والتهامية التي نلمسها في الأفراد ، ولعل هذا هو المفتاح الذي قد يفتح لنا في المستقبل الباب إلى الشفاء النفسى الجماعى كما فتح لنا الباب إلى الشفاء النفسى الفردى .